الحقيقة من خلال مبدأ الذاتية

بقلم الجندي خليفة

— ٢ —

استعراض المبدأ

مبادىء الفكر :

ولثباتية تلك الافكار (*) ، أي لكونها عنصر الحقيقة الثابت ، أسميت « بمبادىء » أو « قوانين الفكر » ، فهي على الرغم من انتمائها الى عالم النفس الذي هو أبعد ما يكون عن الاطراد على وتيرة واحدة ، الا ان لها مع ذلك، من اتفاق العقول على اقرارها تلقائيا ، ما يجعلها تشبه فعلا القوانين الطبيعية في عموميتها وموضوعيتها ، فليس عقلي أو عقلك فقط هو الوحيد الذي يسير على نهجها في تفكيره، بل وكل عقل سليم راشد ، فلا يمكن لاحد مخالفتها، الا ليصل الى التهافت والعبث ، كما لا يمكن للغير ان يتفهم — في حالة مخالفتها — ما يجدر بالعقل تفهمه .

وهذه الصفة للقوانين ليست صفة كمالية ، (درجة رفيعة من مستويات التفكير) بحيث ان توفرها افضل فقط من عدم توفرها ، كلا بل ان ورود التفكير عليها شرط اساسي لكل تفكير مهما كان « مستواه » من العمق او الضحالة ، فالمرء يشعر أنه ملزم باتباعها كلما خطر بباله مخالفتها ، ومن ثم قيل « ان الحكم المخالف لهذه القوانين هو غياب النفس » (١).

وما دامت لهذه القوانين القوة الملزمة باتباعها فنحن نسير بمقتضاها مباشرة وبكيفية تلقائية ، أي اننا درجنا على التسليم بها دون مناقشة ، بل ان كل برهنة تدور حولها — لغرض اثباتها ولغرض انكارها تستلزم بالضرورة الاعتماد عليها هي بالذات اولا وقبل كل شيء — والا لما امكن ان تكون لهذه البرهنة اية ميزة تميزها من سائر الاصوات التي لم تجعل لتفهم ، بعبارة اخرى ، فانها عندئذ لا تفتقد وحسب مدلول البرهنة بل وحتى مدلول الكلام.

فلهذا سميت تلك الافكار الثابتة ، منذ قرون عديدة، « بالقوانين » ، كما سميت « بضروريات الفكر الاولية » او « بديهيات البرهان الاساسية » وكل ذلك يرمي الى التعبير عن الصفات الآنفة الاشارة ، أي « الاطرادية » والعمومية والالزامية .

لكن ما مصدر هذا الالزام ؟ هل هو فطري في العقل سابق على التجربة ام هو بالعكس مكتسب منها أو وارد بعدها ، فهو نتيجة لها ؟

الواقع ان البحث في هذه النقطة يخرجنا عن الميدان المنطقي ويلقي بنا عن غير حاجة في احضان الميتافيزيكا (١) — وقد لا تكون احضانا رحيمة اكثر من المنطق — والواقع ايضا ان المرء لا يمكنه ان يتحدث عن مبادىء الفكر حديثا غير مخل دون ان يتطرق الى هذه النقطة بالذات وامثالها مما يتعلق بالمبادىء من حيث طبيعتها وكيفية تكونها ونحو ذلك ، لهذا سأحاول التوفيق بين كلا الاعتبارين فاتحدث عن ذلك ولكن في الفصل الذي يعقب هذا الفصل الذي أود ان اخص به الجانب المنطقي البحت ما امكن ذلك.

الذاتية ومبدأ الذاتية :

قلت في اخر الجزء الاول من هذه الدراسة ان مبدأ الذاتية هو أهم تلك المبادىء الفكرية عموما . وذلك لامكانية ارجاع جميعها اليه ، فضلا عن اهميته بوصفه طريقة التفكير السليم (٢) وقاعدة الحقيقة الوحيدة.

غير انني قبل محاولة التحدث عن المبدأ — وارجاع الباقي اليه — يجدر لفت النظر الى الاستعمالات اللغوية المختلفة التي ترد فيها لفظة الذاتية ويمكن ان اقسم ابتدائيا ، هذه الاستعمالات على اساس ورود لفظة المبدأ او القانون مضافة الى لفظة الذاتية « او الهوية » او عدم ورود لفظة المبدأ ..

الذاتية في غير المنطق

ففي حالة ورود اللفظة غير مصاحبة لكلمة المبدأ يكون لها معان مختلفة من اهمها :

١ — في الناحية الادارية :

هي عبارة عن المميزات المدنية لفرد من الافراد، تدل عليها بطاقة رسمية تستخرج من الدوائر المختصة من قضاء ، وأمن .. وذلك طبقا للتسلسل العائلي والتحريات على العين والتأييد بالصورة الشخصية وما يمكن تسميته « بالمسح الفسيولوجي » أي قياس الميزات الفارقة والاشكال الملازمة للشخص من نتوء فك مثلا وطول قامة ، ونحو ذلك.

(*) راجع العدد الماضي من الاداب .

(١) المنطق الصوري صفحة ٥٨ .

(١) ولعل هذا هو السبب في ان غالب كتب المنطق الفرنسية — كما لاحظ الدكتور النشار في كتابه « المنطق الصوري » لا تبحث في هذه المبادىء ضمنه لاعتبارها اياها من الميتافيزيكا ، او لاعتبارها اياها اولى بعلم النفس ، والفعل فان كتاب اسس الفلسفة الذي اثبته ضمن المراجع الفرنسية في الترتيب السابع ، قد بحث المبادىء في الجزء الذي خصصه بعلم النفس ، وبالفعل فان كتاب اسس الفلسفة الذي أثبته ضمن المراجع قد اعتبرت العلاقة القائمة بين الجانب المنطقي والميتافيزيكي في المبادىء، انظر المنطق الصوري صفحتي ٥٥ — ٥٦ .

(٢) وكما قال ليبنيز متحدثا عن جملة المبادىء التي ارجعها اخيرا الى مبدأ الذاتية « والسبب الكافي » : « فكما انه لا يمكن السير بدون عضلات واوتار فكذا لا يمكن التفكير بدون هذه المبادىء » .

وفي هذه الحالة غلب في العربية استعمال لفظة « هوية » خاصة ، وندر استعمال اللفظة المرادفة لها «الذاتية » .

٢ ـ في الطب الشرعي :

عندما يحصل الشك في ان الشخص الفلاني هو صاحب الجثة الفلانية ـ ميتة غالبا ، وحية احيانا ـ فيتوصل الطبيب المختص الى اثبات او نفي التطابق بينهما ـ الشخص والجثة ـ وذلك باستخدام طرق تستند الى علم الحياة (البيولوجيا) فضلا عن «المسح الفسيولوجي»، فهذا التطابق تطلق عليه لفظة الذاتية او الهوية.

٣ ـ في الرياضة :

« هي التساوي المعهود بين عددين كل منهما يبلغ في مجموعه مقدار ما يبلغ الثاني ، مثل ٢ يساوي ٢ أو ١ زائد ٢ يساوي ٣ .

وتطلق كذلك على التساوي بين عددين لهما نفس القيمة العددية مهما كان بينهما من اختلاف في القيمة الحرفية ، مثل السطح المعتبر :

(أ زائد ب)٢ = أ٢ زائد ٢ أب زائد ب٢ ، ويرمز لهذا التساوي كما هو معروف بالعلامة = » (١) .

ثانيا :

١) في علم النفس :

اذا كان التقسيم الذي عرضت آنفا جزءه الاول مبنيا على اساس عدم اضافة لفظة المبدأ او القانون الى « الذاتية » او « الهوية » وما سأعرضه الان مبنيا على عكس ذلك ، فيجب ان يكون ذلك منظورا اليه من حيث الاصل او الغالب فقط ، وليس من حيث التجوز والندرة، فمثلا رغم نفور ندرة ورود عبارة كـ « الهوية » عند الحديث عن حق المواطن في التمكن من الحصول على بطاقة التعريف به الشخصية ، الا ان ذلك غير خطأ ومغتفر خصوصا لدى عامة المستعملين .

كذلك قد لا تكون « الذاتية » او «الهوية» مسبوقة بلفظ المبدأ او القانون ومع ذلك يكون لها معنى من غير المعاني الآنف شرحها في الفقرة السابقة .

وهذه الحالة الاخيرة تنطبق في علم النفس عند الكلام عن واحد من مميزات الشخصية ، وهذا المميز المقصود ليس سوى مبدأ الذاتية « مطبقا في المجال النفسي تحت عنوان اخر مثلا الشعور بالاستمرار» **Sentiment de Continuite** او الديمومة **«Duration»** (٢) . ومع ذلك فكثيرا ما تطلق لفظة الذاتية اطلاقا، فلا يضاف اليها لفظ المبدأ او القانون، حتى لتصبح ـ كلمة الذاتية ـ او الهوية ـ مرادفة في هذا المجال النفسي لكلمة الشخصية **«Personnalité»** في حين انها ليست اكثر من مميز لها ومقوم من مقوماتها ، على ما سبقت الاشارة .

غير انني ما دمت لم اتحدث بعد عن الذاتية بوصفها مبدأ ، فينبغي ان اكتفي الان بمجرد القول بان معناها في علم النفس قريب من : « تطابق الشخصية مع نفسها » وليس قريبا من « التطابق بين الشخصية وجثتها » خلافا لما هو الشأن في الميدانين الاداري والشرعي السابقي الذكر . غير ان ذلك لا يحول دون الملاحظة بأن هذا المعنى نفسه المستعمل في سياق الحديث عن مميزات الشخصية لكونه تطبيقا للمبدأ في المجال النفسي ، صالح لان يكون تمهيدا لمعنى الذاتية في المنطق ، هذا المعنى الذي هو بالدرجة الاولى محور البحث.

والسببين معا ، أي لتوضيح معنى الذاتية في علم النفس ولتمهيدية مثل هذا التوضيح لمعناها في المنطق، أقدم الترجمة التالية التي اخترتها من احدى الموسوعات الاجنبية :

« الذاتية في علم النفس عبارة عن تلك العاطفة التي تحمل الفرد منا على الشعور بانه عين الشخص الذي كان في الماضي ، في الامس القريب والامس البعيد ، بل والذي يرتقي الى ما وراء ذكرياتنا نفسها ، ويكون ذلك من الوضوح والقوة بحيث لا يسع الواحد منها ، بمجرد ان يبتدىء التفكير في ذلك ، الا ان يتعرف في نفسه ، على ذاك المسمى الباطني الذي يدعى « انا » ، والمرء اذ يتعرف على هذه « الانا » ليدرك فورئذ انها قد ظلت هي هي فلم يعترها تباين فيما بينها ، وذلك رغم التغيرات والاحداث التي لا تفتأ تطرأ عليها ، فسواء اكنت في حالة أكل أم شرب، وسواء أكنت أترشف من رحيق اللذة أم اكابد من مرارة الالم ، بل وسواء اغادرتني حالة اليقظة الى النوم نفسه ، فانني دائما اظل انا الذي اكلت وشربت ، وانا الذي خبر اللذة والالم، وانا الذي انتابني ايقاع النوم والاستيقاظ ؛ كنت رضيعا ويافعا ، وكنت في ربيع العمر وصيفه ، وها اني الان في خريفه ارتقي ذروة حياتي وانا على نفس الشعور بتلك « الانا » المستمرة ، وباني واحد خلال جميع هذه الاطوار، وخلال جميع ما جرى فيها من اختلاف بين مشاربي واذواقي وتبدل بين ظروفي واحوالي.

وهكذا فان انيتي وشخصيتي ووجودي ، الاكثر باطنية ، لتبدو لي ، رغم كل ذلك التغير ، انها لم تنقطع اقل لحظة عن استمرارها وبقائها هي هي » .

الذاتية في المنطق

هذا هو القسم المقصود من الذاتية ، وهو القسم الوحيد من بين جميع الاقسام السابقة ، الذي ينضاف فيه لفظ المبدأ الى لفظ « الذاتية » بدون ذلك التجوز او المخالفة للاصل ، كما ان لفظة الذاتية في هذا الميدان تظل بمعنى مطابق للمعنى الحاصل من التضايف ـ حتى ولو لم يذكر لفظ المبدأ .

بعد هذا نتساءل عما هو المقصود بخصوص هذه اللفظة المركبة أي « مبدأ الذاتية » بعد ان القينا فيما مضى لمحة على مجمل مبادىء الفكر بصفة موجزة عامة .

اما المبدأ نفسه او القانون فقد سبق ان اشرت الى ما يكفي في توضيح معناه ؛ واما الذاتية فهي ، لغويا ، مشتقة كما هو واضح من « ذات الشيء » . ويمكننا ان نظل ننقب في القواميس العربية المحيطة دون ان نخرج في النهاية باكثر من ان ذات الشيء هي « عينه وحقيقته » ،

---

(١) من دائرة « لا روس القرن العشرين » **Mot identité**

(٢) كان يمكن ان يقال « دوام » بدل « ديمومة » غير انني اخترت الثانية لانها اقرب الى معنى المصدر والفعل من الاولى (الاولى اسم مصدر ، والثانية مصدر) ولهذا السبب نفسه اخترت مقابلة «الديمومة» باللفظة «Duration» بدلا من اللفظة «Durée» التي يجب ان تبقى على هذا الاعتبار ، مقابلة لـ « دوام » ، ومعروف ان هاتين الصيغتين الاجنبيتين تختلفان الواحدة عن الاخرى من حيث الاعتبار نفسه ، اذ ان الصيغة المنتهية بـ «tion» هي غالبا تدل على الحدث ، وليس الامر كذلك في «Durée»

وذلك ــ أعني حصر نتيجة التفتيش اللغوي في المعنى المذكور ــ حسب محاولة قمت بها شخصيا في اكثر من قاموس « وجاسوس على القاموس » ونحوهما من الكتب التي تطيل ولا تنيل ، وتضيع ولا تعيض .

« والهوية » هي المرادف الاكثر فلسفية والاكثر ابتعادا عن نطاق الاستعمالات الادبية ، وذلك لانها ، اولا ، كلمة لم تتولد الا في احضان الفلسفة والمنطق ولانها، ثانيا، مأخوذة من صيغة لا يعرف امثالها كثيرا من الاشتقاق في العربية قبل ــ المعاصرة ، واعني بها « الضمير » اذ انها مشتقة من « هو » وذلك من نحو قولهم ــ ان (ما هو ، هو) او ان لكل شيء حقيقة لا تتغير ونحو ذلك من التعاريف التي تدور حول ثباتية «الجوهر» او «الماهية» او الحقيقة(١) .

والملاحظ ان التعريف المنطقي للمبدأ يكاد لا يختلف عن هذا التعريف اللغوي للفظة الهوية . فهو اذن اهم من لفظة «الذاتية» ، غير ان الاقتصار عليها تعريفا يظل اقل من القليل ، ولذلك فيجب الا نعتبره اكثر من نقطة انطلاق الى مزيد البسط والتوضيح .

وقبل ان نغادر مجال التعريف اللغوي قد يحسن ان نلاحظ ان المصطلح الفرنسي المقابل لمعنى الذاتية او الهوية هو « Identité » وهذا لا يستدعي اي تنبيه لاي ملم باللغة ، غير ان الامر ليس في مثل هذه البساطة في حالة تعدد الاستعمالات من الميدان الاداري الى الشرعي الى النفسي والمنطقي ــ ففي الفرنسية تستعمل اللفظة الآنفة في اي من هذه الميادين ، اما في العربية فقد جرى العرف على تخصيص لفظ الذاتية بغير الميدان الاداري واطلاق لفظة « الهوية » في اغلب الميادين وخصوصا في الميدان الاداري ، وهذا خلاف ما يتبادر للذهن حيث كان « الاولى » بالهوية ان تبتعد ، لاصلها الفلسفي ، عن الميدان الاداري ... وقد تقدمت الاشارة الى شيء من هذا الاستعمال .

فاذا كنا انتهينا من ذلك فعلينا الان ان نشرع في الاجابة على السؤال ــ ما هو بالضبط والتفصيل معنى الذاتية ــ او الهوية ــ في المنطق ؟

والواقع ان المبدأ في شكله العام جد مشهور ويعرفه كل طالب في الثانوي ، ولكن نظرا الى ان الغاية من عرضه هي مناقشته وبالتالي بيان حقيقة طبيعته ، فلا بد قبل ذلك من التذكير بنماذج مختلفة من تعريفات المناطقة له .

مبدأ الذاتية

قانون الذاتية هو حكم العقل السليم بان لكل شيء حقيقة ثابتة ما دام في عالمه ، وانه ما دام من الصحيح انه متصف بالحقيقة الفلانية فانه يكون من غير الصحيح اتصافه بحقيقة مضادة ، او مناقضة ، وان بين حقيقته التي نسبت اليه ــ نسبة صادقة ــ وبين نقيض او ضد هذه الحقيقة ، تباينا تاما فلا واسطة بينهما .

وللاشياء صفات جوهرية هي حقائقها المشار اليها ولكن لها ايضا صفات خاصة بكل منها ، فبين النوعين من الصفات ما يشمل جميعها وهو موضوع مبدأ الذاتية لكن الذي يشمل بعضها على حدة هو الذي يفرق ويميز نوعا من آخر ــ داخل الجنس .

مثال ذلك ان للماء صفة السيلان وللحجر الصلابة فكلاهما نوع متميز من الاخر ، غير ان كلا من الماء والحجر لا يعدو ان يندرج تحت خاصية مشتركة بينهما معا هي الجمادية المتميزة بعدم الحس وعدم النمو .

ولشرح باقي القانون يقال ــ لنفرض ان امامي صندوقا لا اعرف ماذا بداخله لانغلاقه . فانا لا استطيع ان اطلق على الخبء اي حكيم معين ، فهو يجوز ان يكون جمادا او حيوانا او نباتا ، وفي كل يجوز ان يكون هذا او ذاك من انواع كل منها المختلفة المتباينة في خصائصها النوعية والمشتركة في حقائقها الجنسية .

فاذا ما انفتح الصندوق وتبين لي ان ما بداخله انما هو وردة ذات عبير طيب وكنت في مشاهدتي هذه صادقا ، عندئذ يصح ان احكم بما يلي :

١ ــ انه ما دام هناك في الصندوق شيء فقد انتفى بالضرورة نقيض الوجود ، اي انتفى الا يكون بالصندوق شيء .

---

(١) ان هذه الكلمات « الجوهر » ، « الماهية » « الحقيقة » لمن أغمض الالفاظ واكثرها اثارة للجدل ومدعاة لعدم الاتفاق وذلك فيما يبدو، يعم غالب اللغات ، وفي خصوص الكلمة الاخيرة « الحقيقة » ــ كنت قد قدمت في اخر الجزء الاول (من هذا البحث) بعض التحليل لها فأرجعتها الى مقومين اثنين هما المبدأ الثابت الذي يدور عليه البحث والمتغيرات ــ من احكام وقوانين ــ التي هي خارجة بطبيعة الموضوع عن نطاقه، غير ان هذا التحليل لم يكن في الواقع سوى تحليل من وجهة نظر معينة تتفق مع روح البحث واتجاهه ولذلك يجب ان اؤكد الا تنافي حتميا بين هذا وبين أي تحليل اخر سليم يبنى على وجهة نظر اخرى .

أما في خصوص اللفظتين الباقيتين أعني « الماهية » و « الجوهر » فلم أقرأ شخصيا في تحليلهما أطرف ولا اعمق في الوقت نفسه مما كتبه بصددها « راسل » في كتابه (تاريخ الفلسفة العربية) الذي ترجمه الدكتور ز.ن. محمود ــ والى القارىء بعض المقتطفات منه : « يظهر ان ماهية الشيء قد اريد بها ذلك الجانب من صفاته التي يستحيل ان تتغير دون ان يفقد الشيء هويته ، فقد يكون سقراط سعيدا آنا حزينا آنا اخر ، قد يكون صحيحا حينا مريضا حينا اخر ، فما دام يستطيع ان يغير من هذه الصفات دون ان يبطل كونه سقراط فلا تكون هذه الصفات جزءا من ماهيته لكننا نقول ان ماهية سقراط انه انسان (ولو ان المعتنق للمذهب الفيثاغوري الآخذ بمبدأ التناسخ لا يسلم بهذا) وحقيقة الامر هي ان مسألة « الماهية » مسألة طريقة استخدام الالفاظ، فنحن انما نطلق اسما بعينه في ظروف مختلفة على حوادث يختلف بعضها عن بعض نوعا ما لكننا نعدها ظواهر « شيء » معين او « شخص » معين. فذلك في واقع الامر لا يعدو ان يكون وسيلة لغوية سهلة اصطنعناها اصطناعا ، وعلى ذلك فماهية « سقراط » قوامها تلك الصفات التي ان غابت بطل استعمالنا لاسم « سقراط » فالمسألة لغوية خالصة فقد يكون للفظة ماهية لكن الشيء مستحيل ان تكون له ماهية .

وفكرة « الجوهر » مثل فكرة « الماهية » ان هي الا ثقل لما هو في الحقيقة وسيلة لغاية لائقة لا اكثر ــ الى عالم الميتافيزيكا .

« والجوهر لا يخلو من مشكلات فالمفروض فيه انه شيء متميز من صفاته كلها لكننا اذا ابعدنا الصفات وحاولنا ان نتصوره قائما بذاته لم نجد شيئا قائما » .

أنظر صفحتي ٣٢٠ ــ ٣٢١ .

---

(١) وفي عبارة تلخص بعض اوجه الذاتية يقول ليبنيز ــ ان الذاتية هي التي تكون الهوية الواقعية الفيزائية ، رليس المظهر الذي تتخذه حينما يصاحبها الحقيقة سوى لاحق ينضاف الى الهوية الشخصية .

Le soi fait l'identité réelle et physique, et l'apparence du soi accompagné de la vérité, y joint l'identité personelle . Devoir philosophiques de Leibniz. P. 212.

٢ ـ كما ينتفى ان يكون به « نصف » وجود او حالة هي بين وجود الشيء وعدمه (اللهم الا عند من يقول بالواسطة بين العدم والوجود) .

٣ ـ ما دام للوردة عبير طيب فانه قد ينتفى ان يكون شبيها تماما برائحة القرنفل وشذى العنبر ... مثلا ، ولكنه ينتفى ان يكون العبير كريه الرائحة منفر الشم .

٤ ـ ما دامت كل هذه الاحكام صادقة ، ولنطلق عليها الرمز (ب) ، فانها تظل بالضرورة صادقة ، ولنطلق على امتداد الصدق هذا الرمز (ب) ايضا ، ومن هنا نستخرج تركيب المناطقة المعروف في وصف قانون الذاتية : ب هو ب .

وفيما يلي بعض النصوص في تعريف المبدأ ..

قال « كريتون » في كتابه المبادىء المنطقية في شرح قانون الذاتية :

يجب ان تبقى حقائق الاشياء ثابتة لامكان العلم بها، سقراط هو دائما سقراط والحديد هو الحديد، ولا يفكر قانون الذاتية ان الاشياء تتغير على الدوام ولكن التغير الواقع لا يزيل مميزاتها الذاتية ما دامت موجوده (صفحة ٣٤٤)

وقال « ولتون » ..

« يقرر قانون الذاتية ان طبيعة كل شيء ثابتة ، وهو مع هذا لا ينفى وجود الفرق او التغيير ، وفى الحقيقة التمييز بين الاشياء يكون بمعرفة ما بينها من الفروق .

تختلف شجرة البلوط في الحجم والشكل والمجال وغير ذلك من وجوه الاختلاف وهي مع هذه الاختلافات لها ذاتية واحدة تظهر فى تاريخ حياتها .

يحدث مرور الزمن سريعا او بطيئا في كل شيء، ونعلم مقدار ما ينتظر وقوعه منه ، ولا ندرك الذاتية مطلقا اذا لم يكن معها ذلك التغيير ، اذا رايت اليوم طفلا يشبه في نظري طفلا اخر قد عرفته منذ ثلاثين سنة لا يعنى من ادراكي انهما متشابهان الا ان اعتقد ان الاول هو الثاني ، فالذاتية حينئذ تدرك دائما بين الاشياء المختلفة (١)

ويقول جميل صليبا ..

يعبر الفلاسفة عن هذا المبدأ بقولهم ـ (ما هو ، هو) او (الشيء هو هو عين ذاته) الا ان هذا التعبير يدخل على معنى مبدأ الهوية شيئا من الوجودية مع ان مدلوله يجب ان يكون صوريا محضا ، فلنعبر اذن عنه بقولنا: ما هو صحيح ، صحيح ، والقول لا يمكن ان يكون صادقا وكاذبا معا . ان علماء المنطق يعبرون عنه بقولهم :(ب هو ب) (مع العلم بان «ب» تدل على قضية لا على شيء » (٢)

وهذا قريب من تعريف الموسوعة الكبرى الفرنسية حيث تقول ...

« بفضل مبدأ الذاتية كل تفكير يظل منطبقا مع ذاته ما لم يتعرض لتغيير ، ويمكن التعبير عن هذا المبدأ بالصورة : (أ هي أ) او بالكلمة : (الشيء عين ذاته) . وتتكلم الموسوعة بعد هذا على توابع لمبدأ الذاتية وهي كلمة تعود اليه فلا داعي لنصوصها بالكلام هنا ـ ثم تختم حديثها عن المبدأ ببيان اهميته فتقول :

« ومخالفة هذا المبدأ معناها الوقوع فيما هو عديم المعنى ، فيما هو بطبيعته غير قابل للفهم ومتناقض مع ذاته ، وذلك كما لو قيل : الدائرة مربعة او الصفر كمية . فهذا المبدأ يتحكم اذن فى امكانية الفكر ويوجه خطاه.

اما الدكتور ز .ن . محمود فيعرف « الذاتية » بانها علاقة الفرد الجزئي بنفسه (١) في حين ان ليبنيز يقتصر احيانا على تحديده بالصيغة الجبرية التي سبقت فى بعض التعابير الانفة « أ هي أ » . (٢) .

ولا شك ان ليبنيز اذ يختار هذه الصيغة لا يكون متمشيا مع نزعته الرياضية العامة ـ ولا سيما في المنطق ـ وحسب بل ومحققها للصيغة الاصلية فى المنطق اي الصيغة الصورية ، وهذه يحققها الرمز الرياضي اكثر من العبارة اللغوية . وذلك لتجريديته على مستوى ابعد من التجريد اللغوي .

غير ان اختيار مثل هذه الصيغة قالبا لتعريف الذاتية ، يضمر على ما لاحظ الدكتور ز.ن. محمود اهمالا لعنصر اساسي في علاقة الذاتية وهو اختلاف الظروف المحيطة بالشيء الذي نعرف له ذاتيته . (٣) .

ودون ان اسبق ميعاد المناقشة التي سيكون موضعها في الجزء التالي من هذه الدراسة ودون ان ابدى الآن الاحترازات التي اراها حول ما قد ينجم من اشكال بصدد « اختلاف الظروف المحيطة بالشيء .. » اقول في انتظار ذلك فان تقرير المناطقة لمسالة الاختلاف في الذاتية يمكن ان يعبر عنه احسن تعبير الفقرة التي انقلها ايضا عن الدكتور ز.ن . محمود ،في كتابه

(١) نقلا عن كتاب علم المنطق الحديث صفحة ٣٣ .

(٢) علم النفس ط ٢ صفحة ٥٥٨ .

(١) المنطق الوضعي صفحة ٨٤ .

(٢) المنطق الصوري صفحة ٥٩ .

(٣) المنطق الوضعي صفحة ٨٦ والصيغة التي نقدها الدكتور من حيث اهمال العنصر الاساسي الراجع الى اختلاف الظروف تختلف شكليا عن الصيغة الجبرية فهي (أ متطابقة ذاتيا مع أ) غير ان ذلك ـ كما هو ظاهر لا يؤدي الى بطلان نقد الدكتور فالداعي اليه لا يزال هو هو.

في الاسواق :

قضايا الشعر المعاصر

بقلم

نازك الملائكة

او في دراسة

وأعمقها في مشكلات الشعر

العربي الحديث

منشورات دار « الآداب » الثمن ٤٥٠ قرشا لبنانيا

« ديفد هيوم » قال الدكتور .. « لو كانت هناك وحدة واحدة لما كانت هناك ذاتية او هوية لان الوحدة واحدة بحكم تعريفها فليس فيها التعدد الذي نحكم على وحداته بانها تكون فردا . وبالتالي فليس فيها الاشكال الذي يحاول الفلاسفة ان يفسروه بمبدأ الذاتية .

وكذلك لو كان هناك عدة حالات او عدة انطباعات مهما يكن بينها من تشابه دون ان ازعم لها انها في الحقيقة ذات واحدة لما نشأت مشكلة الذاتية ، لان هذه المشكلة كما قلنا لا تكون الا بقيام الوجهين معا .. العدد الذي يكون وحدة (١) .

الذاتية والتعريف

اذا كانت التعاريف السابقة للذاتية هي التعاريف التي يختصر بها الميدان المنطقي والفلسفي ، فليس معنى ذلك ان جميع المناطقة والفلاسفة متفقون على المقصد الاهم منها ، وليس يعنينا هنا نظرا لاتجاه البحث سوى المقصد الذي يرمي اليه المناطقة الوضعيون .

والمنطق الوضعي يهدف في اقصى غاياته الى التحليل اللغوي ، اي الى بيان معاني الالفاظ واستعمالاتها المختلفة ، وتجريد الكلمات من الاوهام العالقة بها وافهامها على حقيقتها . وبعبارة واحدة ـ هو يسعى الى التعريف .

وعلى التعريف يتوقف التفاهم بين الناس في حياتهم اليومية والفكرية ، فمسائله من مواضيع المنطق الهامة كما « ان العلم في كثير من الاحيان ليس الا تحديد المراد بكلمة معينة فتحديد « (الحرارة) موضوع لعلم باسره وتحديد (الحركة) موضوع لعلم اخر ، وتحديد « المادة » موضوع لمجموعة علوم وهكذا » (٢) .

وطالما كان للتعريف هذه الاهمية فقد بحث المهتمون ، من المناطقة ومن الفلاسفة ـ الذي يلتقون بالمناطقة ـ امكانية التوصل الى طريقة ، تخضع بها الحدود التي نستخدمها في تركيب القضايا المنطقية لحساب دقيق كالذي نراه قائما بين الرموز الجبرية في علم الجبر » (٣) الامر الذي يؤدي بالتالي الى ان يكون التعريف دقيقا بديهيا كما لو كان عملية حسابية « لا سبيل الى اختلاف الرأي فيها » (٣) .

والتعريف اذا نظرنا اليه من هذه الوجهة الوضعية الرياضية هو التساوي التام بين كلمتين او عبارتين ، فكما ان بين الطرف الايمن والطرف الايسر من المعادلة ٢ + ٢ = ٤ مساواة تامة فكذا يكون تعريف الارملة بالتي توفي زوجها تساويا تماما اي ذاتية ثابتة للمعنى الواحد من خلال العبارتين المعرفة والمعرفة .

وبعبارة مختصرة .. المقصود من الذاتية في المنطق الوضعي هو الترادف بين الكلمتين والتساوي بين العبارتين

واهم نتيجة عملية ترتب على هذا القانون هي ما اشرت اليه في صدر الفقرة مما يعود الى ان المثل الاعلى للتعريف هو التساوي التام بين المعرف والمعرف بحيث يصبح من الممكن تماما وضع احدهما مكان الاخر في اي سياق دون ان يختلف المعنى قليلا او كثيرا .

القاهرة — **الجنيدي خليفة**

---

(١) صفحة ٥٩ .

(٢) المنطق الوضعي صفحة ٤٩ .

(٣) المصدر السابق صفحتي ١٠٧ ـ ١٠٨ .

سلسلة الجوائز العالمية

صدر منها :

١ ـ المثقفون

رائعة الكاتبة الوجودية الكبيرة

سيمون دو بوفوار

الحائزة على جائزة غونكور الفرنسية

ترجمة جورج طرابيشي

في جزءين ـ ثمن الجزء ٧ ليرات لبنانية

٢ ـ السام

اخر رواية للكاتب الايطالي الشهير

البرتو مورافيا

وهي الحائزة على جائزة فياريجيو الكبرى

الثمن خمس ليرات لبنانية او ما يعادلها

٣ ـ ابك يا بلدي الحبيب

تصوير رائع للمأساة العرقية في افريقيا الجنوبية

تاليف الان بيتون

ترجمة خليل الخوري

الثمن ٤٥٠ قرشا لبنانيا

منشورات دار الاداب ـ بيروت